كل من انتقد السياسة الإسرائيلية فهو في عرف ماكينة الدعاية الإسرائيلية متهم باللاسامية ولو كان من صميم العرق السامي! وكل من رفض معاداة العرب فهو سليل تشامبرلين رئيس وزراء بريطانيا الذي استغفله هتلر قبل الحرب العالمية الثانية فجلبت غفلته الكارثة! وكل من رمى إسرائيل بقشة فهو صانع محرقة جديدة لليهود!

لقد أنشأت ماكينة الدعاية الصهيونية في الغرب منذ عهد بعيد مجموعة ركائز فكرية ومعنوية لتكون بمثابة مسلمات ومقدسات ورموز ومحرمات في الذهنية المشتركة للأوروبيين، وبمثابة فراش للمادة الإعلامية التي دأبت فيما بعد على ترويجها. ومن بين لازمات هذه المادة تصوير العرب في صورة المتوحشين القذرين تجار المخدرات والأسلحة والإرهابيين بالفطرة والسليقة.

ولما كان رجال الإعلام الصهيونيون المحترفون خبراء بالشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها والتي هم جزء منها، فإنهم يعرفون كيف يخاطبونها. وهم يثيرون مكامن الوجع لدى الغربيين بطريقة تعتمد فهم التراكمات النفسية التي خلفتها وذكرياتها المريرة. وحيث يلزم استخدام نصوص دينية فإنهم يأتون بشواهد توراتية مناسبة يفسرونها على هواهم، وحيث يلزم استثارة الشفقة فإنهم الضحايا البريئة على الصليب، وحيث يلزم إثارة الإعجاب فإنهم يضربون على وتر العصامية والتفوق، وحيث يلزم إحداث عقدة نقص إزاءهم في نفوس الأمريكيين السذج فإنهم يتحدثون عن أنفسهم بوصفهم (الشعب القديم، الذي يمتلئ بالحكمة).

<u>اسرائيل والعنف توأمان</u>

وهذا كله معروف وشائع ودارج منذ عشرات السنين. أما الجديد الذي برز مؤخرا بصورة صارخة فهو قدرة الإسرائيليين على إلباس غيرهم ثوب جريمتهم التي نفذوها وأخفوا معالمها ما وسعهم الإخفاء.

والمقصود طبعا ما افتروه على الفلسطينيين وظلوا يرددونه ويفترونه من أن الفلسطينيين هم الذين بدأوا دورة العنف الحالية وهم الذين ثابروا على ارتكاب العنف عن قصد وتصميم.

والعنف إذا شاء أحد أن يبحث عن حقيقته هو أساس وجود إسرائيل، وليس ذلك وحسب ولكنه فلسفة التربية الإسرائيلية، وليس ذلك وحسب ولكنه السلعة التي تنتجها إسرائيل وتبيعها للآخرين والسلعة التي تستوردها إسرائيل وتنفق عليها المال الطائل الذي تمدها به أمريكا ويهود أمريكا، وليس ذلك وحسب ولكنه السر الذي يحفظ تماسك عناصر الدولة العبرية المتنافرة في الوقت الحاضر، وليس ذلك وحسب ولكنه المستقبل الوحيد المنظور لإسرائيل!

أما أن العنف أساس وجود إسرائيل فلأنها قامت بالقوة ضد إرادة أهل البلاد. وأما أن العنف هو أساس التربية الإسرائيلية فلأن مناهج التربة والتعليم منذ الطفولة حتى مراحل منظمات الشباب تحض على كراهية العرب وعلى قتلهم، وأما أنه السلعة التي تنتجها إسرائيل وتبيعها للآخرين فلأن صناعة الأسلحة الإسرائيلية تشكل رافدا أساسيا للصادرات المربحة، وفي المقابل تشكل واردات الأسلحة بندا أساسيا في المساعدة الأمريكية وغير الأمريكية الدائمة لإسرائيل، وأما أن العنف هو السر الذي يحفظ تماسك عناصر السكان فلأن إسرائيل لم تتمكن من إدماجهم إلا في الجيش ولم تضم بعضهم إلى بعض إلا بتحريك غريزة الخوف واستثارة

ردود أفعالها، وأما أن العنف هو المستقبل المنظور الوحيد أمام إسرائيل فلأنها تخاف من السلام وتعمل على إفشال التسوية كلما صارت التسوية قريبة المنال.

من البادئ والأظلم

استطاعت ماكينة الدعاية الإسرائيلية في الخارج وفي بعض الأوساط العربية الرسمية أن تنسب للفلسطينيين كلمة العنف مثلما استطاعت أن تنسب للمسلمين كلمة الإرهاب بحيث صار مألوفا أن تردد أجهزة الإعلام الغربية عبارة العنف الفلسطيني وعبارة الإرهاب الإسلامي. ويحمل كل من التعبيرين تزويرا وتضليلا لا يقدر عليهما إلا الصهاينة. وأول سبب أن ما في حوزة الفلسطينيين من السلاح لا يمكن ذكره في مواجهة ما في حوزة الإسرائيليين. وما في حوزة المسلمين نقطة في بحر ما في حوزة الأمريكيين. ولكن هذا المعيار ليس الأهم. فأهم منه الإجابة على السؤال الذي يتعرف به القاضي على اللص والمعتدي حينما يتساءل : من الذي دخل بيت من، ولماذا؟ وأهم منه اكتشاف الخطط القريبة والبعيدة لكل طرف ومدى قدرة كل طرف على تنفيذها. وأهم منه رؤية ما يجري على الأرض بعين بصيرة والاستماع إليه بأذن واعية.

ويتبين للإنسان مدى فظاعة التزوير والتضليل الإسرائيلي وهو يتابع الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت في فلسطين منذ بداية هذا الدور من أدوار الصمود الفلسطيني حتى اليوم.

وما على الإنسان الذي يريد أن يعرف : من الذي بدأ بهذه الأحداث؟ وهل كانت عفوية أو مدبرة؟ إلا أن يسترجع كلام إيهود باراك في وزارة الدفاع الإسرائيلية عقب عودته من قمة كامب ديفيد وعقب مداهمة آريئيل شارون للمسجد الأقصى وانفجار الوضع، بحضور رئيس أركان الجيش وقادة الأسلحة والأجهزة في الوزارة إضافة إلى آريئيل شارون (زعيم المعارضة آنذاك). ثم يقرأ الأحداث اللاحقة في هذا السياق.

باراك وريشيليو

من أعجب العجب أن يسدل الإسرائيليون الستار الكثيف على مؤتمر إيهود باراك وما قيل فيه. فما قاله باراك واضح لا لبس فيه. قال إن تحليله للواقع وتقديره للموقف هداه إلى أن هناك خطرا على إسرائيل من ثلاثة أمور هي تعاظم التطرف الإسلامي ونمو القوة العسكرية المصرية وازدياد الكراهية لإسرائيل في العالم العربي. وفي مقابل ذلك رأى أن دعاة السلام اليهود في إسرائيل يفاقمون هذا الخطر لأنهم يشكلون حسب تعبيره " اتجاهات التدمير الذاتي " في المجتمع الإسرائيلي.

وقد خلص من هذه التحليلات إلى أن (الحل الوحيد الذي لاح في الأفق كان دفع الوضع إلى الانفجار) بنص كلماته. ورأى أن تفجير الوضع سوف يؤدي إلى (جمع شتات الجمهور الإسرائيلي) حسب كلماته أيضا. ويكشف النص الذي نشرته صحيفة نتيف اليمينية العبرية عما هو أوضح في جلاء سبق الإصرار والترصد المقترن بما قام به إيهود باراك من تفجير لاستدراج ثورة الفلسطينيين والقيام بجرائم الحرب التي افتتحها في حينه. فهو يقول متفذلكا حول مقولة للكاردينال ريشيليو الداهية الفرنسي القديم (صحيح أن حالات الأزمات هي فرصة السياسي بعيد النظر كما قال ريشليو، ولكن اسمحوا لي هنا أن أضيف إسهاما متواضعا من

جانبي، وهو أن السياسي القدير لا يكتفي بأن يستغل ساعات الأزمة، بل عليه أن يولدها ويصنعها بذاته).

إنه كلام واضح لا يحتمل أي لبس. وجميع من يدعونهم الصقور في إسرائيل يؤمنون بالنظرية ذاتها.. نظرية إشعار المجتمع الإسرائيلي بالخطر، وزجه في حالة حرب دائمة.. حتى لا يسترخي ولا يتفكك. وتلك على كل حال نظرية الفيلسوف الألماني نيتشة الذي يكرهه اليهود وكان يحبه هتلر، فهو أول القائلين : عش في خطر!

ضربة واحدة ساحقة!

بقي أن نقول إن باراك شفع مداخلته التي نشير إليها بتوجيه أمره إلى قادة الأجهزة السرية الحاضرين أن يقوموا (بتصفية جميع القيادات الفلسطينية في غزة ونابلس وأريحا ورام الله بضربة مركزة ساحقة واحدة (!)

على ضوء هذه النصوص فقط، وهي قد نشرت في عهد باراك، نفهم حملة الاغتيالات التي بدأت في عهده ولم تتوقف في عهد شارون (ومن الجدير بالذكر أن شارون وباراك تفاهما تفاهما تاما على كل شيء ما عدا أيهما يتولى التنفيذ، وهكذا احتكما للناخبين الذين اختاروا صاحب السجل الأكثر سوادا).

وعلى ضوئها أيضا نفهم المغزى الحقيقي لاختيار شارون البغيض كي يكون الشخصية التي تداهم المسجد المقدس. ونفهم السر في اختيار يوم الخميس الذي يسبق الجمعة موعدا لإجراء المداهمة، إذ يغص المسجد في الجمعة بالفلسطينيين القادمين من كل مكان للصلاة في اليوم المبارك. وقد نفذ الجيش مذبحته ضدهم وأوقع يومها ستة شهداء وأكثر من ثلاثمائة جريح، وفي اليوم التالي ثلاثة عشر شهيدا وستمائة وثلاثة وعشرين جريحا، وفي اليوم الذي يليه عشرة شهداء ومائتين وسبعة وعشرين جريحا، وفي اليوم الذي يليه ثمانية شهداء وعشرات الجرحى.. وهكذا أشعل الإسرائيليون غضب الفلسطينيين ثم أوقعوا بهم المذابح لكي يكسب الحاكم تأييد الجمهور ويخرس الأصوات المطالبة بالسلام في إسرائيل ويوحد الجبهة الداخلية بداعي الحرب.

وعلى ضوء تلك النصوص أيضا نفهم السر في قيام الجيش الإسرائيلي بايقاع قدر من القتل والجرح والتدمير والتجريف والترويع لم يسبق له مثيل منذ أيام دير ياسين إلا في عام ١٩٥٦ عند احتلال خانيونس. وارتكاب الجيش الإسرائيلي مجزرته الجزافية ضد جميع الشبان الموجودين بالمدينة.

ياجلالات! يا فخامات

يستغرب الفلسطينيون أنفسهم مبلغ العنف والشراسة والإجرام الذي يتصرف به الجنود الإسرائيليون اليوم ويقولون : لم يسبق أن كابدنا مثل هذا!

والسطحيون العرب وغير العرب يحسبون أن جرائم الحرب التي اقترفها باراك وما زال شارون يقترفها وفقا لبرنامج المائة يوم الجاري كانت عبارة عن رد فعل على رفض الرئيس الفلسطيني عروض باراك في مؤتمر كامب ديفيد. وهذا فهم سقيم للمسألة كلها. وحسبنا كلام باراك نفسه الذي يقول (الخطوة الأخيرة التي كان المعول عليها في توليد الانفجار هي كامب ديفيد ٢. وعندما مرت أيام وأسابيع دون أن يحصل العرب على جبل الهيكل (أي المسجد

الأقصى) والقدس وكذلك عندما رفضت بشدة وحزم تنفيذ اتفاقية واي ريفر، جاءت اللحظة التي اشتعل فيها فتيل التفجير العربي وانفجرت الشحنة بكامل قوتها.)

نحن نسمي كفاحنا ضد الاستفزاز والاستدراج الإسرائيلي انتفاضة. فقد قبلنا التحدي وتصرفنا بالطريقة الوحيدة الممكنة، وهي الدفاع عن أنفسنا.

أما أن يردد أحد أقوال الإسرائيليين الذين لم يكفهم أنهم عمدوا إلى التفجير حتى راحوا يتهموننا بأننا البادئون وأننا المبادرون بالعنف فإن تلك فرية نقبل أن نسمعها من أعداء أمتنا، أما أن يرددها قادة ومسؤولون عرب فإننا نقول لهم : يا إخوة! يا حضرات! يا فخامات! يا جلالات! لا تقعوا فيما يقع فيه الغرب عن قصد أو عن غير قصد. فالمسألة كلها أن الآلة الحربية والمخابراتية والدعائية تقوم بالجريمة ثم تعفي على آثارها. وعندنا في قطاع غزة الخبر اليقين. لقد دفنت جرافات جيش الدفاع حجارة المساكن التي هدمت وجذوع الأشجار التي اقتلعت في الأودية والحفر. فإذا أنت مررت بعد أيام قليلة بالمكان حسبت أن الله خلقه قاعا صفصفا وبقي كذلك منذ بدء الخليقة.

إن للإجرام درجات ومراتب. وقد بلغ الإسرائيليون الآن غاية الطموح في تنفيذ الاغتصاب والمذابح والعنف والظلم. وقد تجاوزوا تلك المهارات التي قد ينافسهم فيه آخرون، بأن أصبحوا الأوائل في العالم في مهارات إخفاء الجرائم والتمويه عليها. ولم يكفهم ذلك حتى راحوا يلبسون غيرهم ثياب جرائمهم. وذلك ما لم يبلغه مجرم في التاريخ البشري.

لم تكتف إسرائيل بالاستيلاء على معظم مساحة وطننا بل لاحقتنا مستعمراتها في المساحة الضئيلة الباقية بأيدينا التي انحشرت فيها جموع مهاجرينا والأنصار. ولم تكتف إسرائيل بمحاربتنا بواسطة جيشها النظامي، بل اخترعت قوة عصابات غير نظامية أطلقت عليها اسم المستوطنين وهم نماذج مغامرة مشوهة من أفراد موبوئين بالسادية قادمين من أوسخ عصابات المافيا في الولايات المتحدة ويحملون جنسيات أمريكية إسرائيلية مزدوجة ويعدون القتل هوايتهم الفضلى. ولم تكتف القيادة العسكرية الإسرائيلية بقتلنا بالذخائر العادية، وإنما استخدمت رصاص الدمدم والقذائف المحشوة بالمسامير والسموم الكيماوية وغاز الأعصاب لإيقاع أكبر قدر من الأذى والألم والدمار. ولم تكتف إسرائيل بإنكار الحقائق الناصعة ولكنها روجت في العالم لأكاذيب مصنوعة قصدا في مطبخ الإعلام الصهيوني العالمي.

وبضاعة الأكاذيب الصهيونية مصنوعة للتسويق لدى الغرب ولدى الولايات المتحدة بصورة خاصة، لأن الاستراتيجية الصهيونية القديمة المتجددة قامت على أساس تجنيد بريطانيا لصالح المشروع الصهيوني حينما كانت مالكة الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ثم انتقلت إلى تجنيد الولايات المتحدة الأمريكية التي ورثت دور بريطانيا ونفوذها والتي فاقتها ثروة وقوة. والتجنيد الذي نتحدث عنه يعتمد أسلوب السيطرة على القلة صاحبة القرار التي تملك موارد معلومات خاصة بها بوسائل الرشوة أو الترهيب أو الاستمالة، وفي موازاته أسلوب تضليل الأكثرية التي تستمد معلوماتها من الإعلام العام والتجاري وإغراقها بطوفان من المعلومات الكاذبة ليلا ونهارا.

وثمة إعلام صهيوني موجه إلى الفلسطينيين وإلى العرب بمعرفة مستشرقين محترفين ولكنه لم يعد في الزمن الراهن يحظى بالاهتمام الذي كان يحظى به قبل أن يدخل الجميع عصر مدريد.